علاقة المسلمين باليهود والنصارى من خلال أحداث السيرة النبوية



حميد الصغير

الألوكة
www.alukah.net

علاقة المسلمين باليهود والنصارى من خلال أحداث السيرة النبوية

[المرحلة المدنية نموذجاً]

للأستاذ حميد الصغير

أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الأول وَجْدَة – المملكة المغربية



-توطئة:

شرع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ دخوله المدينة المنورة يسعى إلى إنجاز المهام الملقاة على عاتقه، في مطلع المرحلة الجديدة من الدعوة، والتي تستهدف إنشاء "الدولة الإسلامية" المنشودة، على أسس متينة، وقواعد راسخة، فهيأ عليه السلام كافة الشروط لتحقيق هذا الهدف العظيم، وقد أقدم عليه السلام فور وصوله إلى يثرب، على أربع خطوات، في سبيل إقامة الدولة وهي:

* أولا: بناء المسجد.

أصدر عليه السلام أمره ببناء المسجد، بل وساهم بنفسه في تشييده جنبا إلى جنب مع المهاجرين والأنصار[١]. "وسرعان ما غدا المسجد رمزا لما سيتم به الإسلام من شمولية وتكامل، فقد أصبح مركزا روحيا لممارسة الشعائر وأداء العبادات، ودائرة سياسية عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحاتها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتدار في باحاتها الندوات وتلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمواساة، ويمارسون التوحد والإخاء والانضباط"[٢].

لقد كان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة بوصفه أداة صهر المؤمنين الإسلام في وحدة فكرية واحدة، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع

---

١ – انظر تفاصيل بناء المسجد النبوي في: "السيرة النبوية" لابن هشام: ٩٠/٢ و"زاد المعاد" لابن القيم: ١٠٤/٢.

٢ – "دراسة في السيرة" للدكتور عماد الدين خليل، ص: ١٢٢.





والشراء... فلم يكن المسجد معبدا أو مقرا للصلاة وحدها، بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكاملا في مختلف جوانب الدين والسياسية والاجتماع[3].

[3] – "الإسلام وحركة التاريخ" لأنور الجندي، ص: ٣٢.



***ثانيا: كتابة الصحيفة.**

فور هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كتب وثيقة تاريخية[4]، نظم بموجبها العلاقات بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين الكتل البشرية التي تعايشت معهم في المدينة، خاصة اليهود بقبائلهم المتعددة، وقد كان هذا "الدستور" مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومعلما من معالم مجدها السياسي والإنساني. وبإبرام هذا "الدستور" وإقرار جميع الفضائل بما فيه، صارت المدينة دولة وفاقية، رئيسها الرسول صلى الله عليه وسلم، وصارت المرجعية العليا فيها لشريعة الإسلام، وصارت جميع الحقوق الإنسانية مكفولة فيها كحرية الاعتقاد وممارسة الشعائر والمساواة والعدل...

إن أي تجمع بشري في حاجة ماسة إلى سلطة، تنظم أموره وتدبر شؤونه، "لأن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من اجتماع"[5]. وإذا اجتمع الناس، فلابد لهم من سلطة سياسية، حتى لا يتحول وجودهم، واجتماعهم إلى خارج الجماعة، كما لا يتصور قيام الجماعة خارج السلطة، وهكذا كان الأمر بالنسبة للجماعة المسلمة، إذا أقام النبي صلى الله عليه وسلم دولته في المدينة المنورة"[6].

وبذلك تكون دولة الإسلام في المدينة: "أول دولة قانونية في الأرض، يخضع فيها الحاكم للقانون، ويمارس سلطته وفقا لقواعد عليا تقيده، ولا يستطيع الخروج عليها، فقد كان الخليفة مقيدا

---

[4] – اختلفت تسمية ما كتبه النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، فسماه ابن اسحاق وكتاب السير القدماء:"موادعة" وسماها الصلابي: الوثيقة أو الصحيفة، وسماها صفي الرحمان المباركفوري: ميثاق التحالف الإسلامي وسماها الحميدي: صحيفة المعاهدة بين أهل المدينة، وسماها البوطي: وثيقة بين المسلمين وغيرهم وسماها بعض المعاصرين ب:"الدستور".

[5] – "المقدمة" لابن خلدون، ص: ٤١.

[6] – "الدولة القانونية" للدكتور منير البياتي، ص: ١٢.



بأحكام القرآن والسنة، واختصاصاته محدودة، بما للأفراد من حق أو من حقوق، وحريات نص عليها الإسلام، ونظمها، وقرر الضمانات التي تكفل حمايتها ضد اعتداء الحكام والمحكومين على السواء"[٧].

وبإقامة أول دولة في الإسلام على أرض المدينة، "تسقط دعوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية –أي أن الإسلام دين ودولة– ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلا دينا قوامه ما بين الإنسان وربه"[٨].

بقول المستشرق الروماني جيو رجيو متحدثا عن مضمون الصحيفة: "حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندا، كلها من رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمسة وعشرون خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان، وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، لهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، من غير أن يتضايق أحد الفرقاء"[٩].

وباستقراء بنود هذا "الدستور" نقف على أهم معالم القيم الحضارية والإسلامية التالية:

–أولا: اعتبار الأمة الإسلامية فوق القبلية: وجاء ذلك في بند: "إنهم [الشعب المسلم] أمة واحدة من دون الناس"[١٠]. وبذلك اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم وانسابهم في جماعة

---

٧ – "النظم السياسية" للدكتور ثروت بدوي، ص: ١٥٤.

٨ – "فقه السيرة" للبوطي، ص: ٢١٩.

٩ – "نظرة جديدة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم" للمستشرق كونستانس جيورجيو، ص: ١٩٢ تعريب: محمد ألتونجي.

١٠ – "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير" لابن سيد الناس: ١/٢٦٠.

الإسلام، وأصبح الانتماء إلى الإسلام فوق الانتماء إلى القبيلة أو العائلة، وهكذا نقل الرسول صلى الله عليه وسلم العرب من مستوى القبيلة إلى مستوى الأمة.

-ثانيا: وجوب التكافل الاجتماعي بين فصائل الشعب: وفي هذه القيمة كتبت مجموعة من البنود، أهما: "المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين"[11]. و"بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين"[12]. "وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل"[13].

- ثالثا: ردع الخائنين للعهود: وجاء ذلك في بند: "وإن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل]من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فسادا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم"[14].

- رابعا: احترام أمان المسلم: وجاء هذا الأصل الأخلاقي في بند: "وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس"[15].

- خامسا: حماية أهل الذمة والأقليات الغير إسلامية: وجاء في هذا الأصل ما يلي: "وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم"[16].

---

[11] - "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ١/٢٦٠ و"السيرة النبوية" لابن كثير: ١/٥٠١.
[12] - "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ١/٢٦٠.
[13] - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/٥٠١.
[14] - "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ١/٢٦٠ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١/٥٠١.
[15] - "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ١/٢٦٠ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١/٥٠٢.
[16] - "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ١/٢٦٠ و"السيرة النبوية" لابن كثير: ٢/٣٢١.

– سادسا: تحقيق الأمن الاجتماعي، وضمان أداء الديات: وجاء ذلك في بند: "وغنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول [بالعقل]، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه"[17]. "ولا شك أن تطبيق هذا الحكم ينتج عنه استتباب الأمن في المجتمع الإسلامي منذ أن طبق المسلمون هذا الحكم"[18].

– سابعا: تحديد المرجعية العليا في الحكم للشريعة الإسلامية: وجاء في هذا الأصل ما يلي: "وإنه ما كان بين أهل هذه الصفيحة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى مت في هذه الصحيفة وأبره"[19] .

– ثامنا: حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية مكفولة لكل فصائل الشعب دون استثناء: تم التنصيص على هذا الأصل في بند:"وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وهو إليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ [يهلك] إلا نفسه وأهل بيته"[20].

– تاسعا: توفير الدعم المالي للدفاع عن الدولة، مسؤولية جميع أفراد الشعب: وجاء في هذا الأصل: "وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين"[21]. فكما أن المدينة تعتبر موطنا لكل الفصائل، وجب على هذه الأخيرة وأن تتحمل مسؤولية دهم الجيش ماليا وبالعدة والعتاد، من أجل الدفاع عن الدولة.

---

[17] – "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ٢٦٠/١ و"السيرة النبوية" لابن كثير: ٣٢٢/٢.

[18] – "التاريخ الإسلامي: مواقف وعبر" لعبد العزيز عبد الله الحميدي: ٤٩/٣.

[19] – "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ٢٦١/١ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٠٣/١.

[20] – "السيرة النبوية" لابن كثير: ٣٢٢/٢، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٠٣/١.

[21] – "السيرة النبوية" لابن كثير: ٣٢٢/٢، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٠٣/١.



- عاشرا: الاستقلال المالي لكل طائفة: ونص على ذلك بند: "وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم"[22]. مع وجوب التعاون بين جميع الطوائف لصد أي عدوان خارجي وجاء ذلك بند: "وإن بينهم النصر على من دهم يثرب"[23]. و"إن بينهم النصر على من حارب أهل من الصحيفة"[24].

- الحادي عشر: "وإن بينهم النصح والنصيحة والتعاون والبر: وجاء هذا الأصل في بنود متعددة منها: "وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم"[25]. فالأصل في العلاقة بين جميع فصائل الدولة – مهما اختلفت معتقداتهم – هو النصح المتبادل والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد والتعاون في نصرة المظلوم وردع الظالم وجاء ذلك في بند: "وإن النصر للمظلوم"[26]. ولكل فصيل حرية عقد الأحلاف مع أي طرف شريطة عدم الإضرار بمصالح الدولة، ونص على ذلك بند: "وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه"[27].

إن إصدار هذه الوثيقة يمثل تطورا كبيرا في مفاهيم الاجتماع والسياسة، فهذه أول جماعة، تقوم لأول مرة في الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة، وعلى غير أساس رابطة الدم، حيث انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الأنصار، ثم انصهر المهاجرون والأنصار في جماعة المسلمين، ثم ترابطت هذه الجماعة المسلمة مع اليهود، والذين يشاركونهم الحياة في المدينة، بحكم

---

٢٢ – "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ٢٦١/١.

٢٣ – "السيرة النبوية" لابن كثير: ٣٢٢/٢ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٠٣/١.

٢٤ – "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ٢٦١/١ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٠٣/١.

٢٥ – "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ٢٦١/١ و"السيرة النبوية" لابن كثير: ٣٢٢/٢.

٢٦ – "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ٢٦١/١ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٠٣/١.

٢٧ – "السيرة النبوية" لابن كثير: ٣٢٢/٢ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٠٣/١.





القانون ولأول مرة، حيث ترد جميع الأمور إلى الدولة. "ومن خلال تغيير شامل، وتحول سريع، طوى الدستور صفحة اجتماعية، طابعها القبلية، وفتح صفحة جديدة أكثر إيجابية، واقرب إلى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية"[٢٨].

*ثالثا: المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين٢٩ :

خطا الرسول صلى الله عليه وسلم خطوته الثالثة نحو بناء الدولة، من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والتي أراد أن يحل بها أزمة معيشية واقتصادية، اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم مكة دون زاد أو مال، فأراد عليه السلام أن ينظم علاقتهم الاجتماعية بإخوانهم الأنصار، ريثما يستعيد المهاجرون قدرتهم المالية، ويحسنوا وضعهم المادي، فآخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار أخوين أخوين.

لقد كان هذا الإخاء تجربة رائدة في تاريخ العدل الاجتماعي ضرب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا على مرونة الإسلام وانفتاحه في الظرف المناسب على أشد أشكال العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلا"[٣٠].

*رابعا: تكوين الجيش:

أقدم الرسول صلى الله عليه وسلم في خطوته الرابعة، من أجل بناء صرح دولته الإسلامية على تكوين جيش، مهمته الدفاع عن الدولة الناشئة، ورد العدوان الخارجي، خاصة بعد ما ذاقه هو وأصحابه في مكة من تعذيب وإيذاء، "ولكنه كان يؤمر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى،

---

٢٨ –"الإسلام وحركة التاريخ" لأنور الجندي، ص: ٣٣.

٢٩ – انظر تفاصيل المؤاخاة في:"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٣٨/٢، و"البداية والنهاية" لابن كثير: ٢٢٦/٣.

٣٠ – "دراسة في السيرة" للدكتور عماد الدين خليل، ص: ١٢٧.





والصفح عن الجاهل، فلم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه، وعذبوا ونفوا من عبده وصدق نبيه واعتصم بدينه. أذن الله لرسوله في القتال والانتصار ممن ظلمهم، وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه بالحرب، وإحلاله له الدماء والقتال قوله تبارك وتعالى:{أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير...}[البقرة: ١٣٤]"[٣١].

وعلى ضوء آيات الجهاد والترغيب فيه، بدأ عليه السلام في إجراءات تشكيل جيش المدنية، وبدأ صلى الله عليه وسلم يفجر طاقات المسلم القتالية عن طريق التدريبات العملية على استعمال السلاح، وشجع أغنياء الصحابة على البذل والإنفاق في سبيل الله وتوفير العتاد الحربي للمسلمين، وإعداد العدة للمجاهدين، وبذلك تأسست أول نواة للجيش الإسلامي في دولة الرسول عليه السلام.

بهذه الإجراءات الأربع وضع الرسول صلى الله عليه وسلم اللبنات الأساسية لدولته، بعدما تميزت المرحلة الأولى [المرحلة المكية] ببناء الإنسان المسلم والجماعة المسلمة. إن دولة الرسول صلى الله عليه وسلم، "فذة في تاريخ البشرية، لأنها أقرت مبدأين لا وجود لهما إلا في دولة غير دينية، وأول هذين المبدأين هو حرية الأديان وهي حرية لا تقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب، بل إنها تتعهد برعايتها وثانيهما: هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيهما

---

٣١ – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١١٦/٢.





تسامحا وإنسانية، وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم"[٣٢].

لقد استكملت دولة الإسلام كل مستلزمات البناء القانوني للدولة، والذي يقوم على أركان ثلاثة: الأمة والسيادة الداخلية والخارجية والإقليم"[٣٣]. وقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم بدولته تلك، النموذج الذي عاش مدى العصور في نفوس المسلمين وعقولهم مثلا يحتذى، وصورة شامخة من صور المثل الأعلى للمجتمع الإنساني السليم والمتكامل الذي يقوم على الإخاء والحب والتسامح، وليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية، ولكنه تطبيق أمين لمفهوم الإسلام ومضمونه [وإيديولوجيته]"[٣٤].

---

[٣٢] – "مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول" للشريف أحمد إبراهيم، ص: ٣٨٣ و٣٨٤.

[٣٣] – "دولة الفكرة" لفتحي عثمان، ص: ١٨.

[٣٤] – "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ١٣٩.





** الفصل الأول: علاقة المسلمين باليهود: نشأتها وتطورها:*

إن علاقة المسلمين باليهود قديمة قدم التاريخ نفسه، ترجع في بدايتها الأولى إلى بشارة كتبهم السماوية ومصادرهم الدينية بنبوة جديدة وأخيرة في تاريخ النبوات، وإن لم تصرح هذه المصادر من سيكون هذا النبي يهوديا أو غير يهودي؟

والمهم من ذلك كله، أن اليهود كانوا على علم ببعثة رسول خاتم، وجدوا أوصافه في توارثهم، فعن زيد بن اسلم قال: بلغنا أن عبد الله بن سلام كان يقول: "إن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة المتعوجة بان يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا} فبلغ ذلك كعب الأحبار فقال:"صدق عبد الله بن سلام إلا أنها بلسانهم: {أعينا عمومين وآذانا صمومين وقلوبا غلوفيين}"[٣٥] .

ولم تكتف التوراة بذكر صفات محمد صلى الله علبه وسلم وزمان ومكان بعثته، بل ذكرت اسمه صريحا حيث: "جاء في حاشية الأصل العبري:"مشتهى كل الأمم حمدوت أي: الذي تحمده كل الأمم" "فالتوراة إذن صرحت باسم محمد [حمدوت] ولكن الترجمة ابعدت لفظة "محمد" لتضع مكانة مرادفا يصرف الذهن عن الاسم الحقيقي هو:"مشتهى كل الأمم"... وقد اثبتت الأيام أن الرسول المبشر به هو: محمد صلى الله عليه وسلم"[٣٦].

---

٣٥ – "الطبقات" لابن سعد: ١/٨٧ وقد حشد فيها والكثير من الروايات التي تؤكد علم اليهود نبوة محمد.

٣٦ – "محمد في التوراة والإنجيل والقرآن" لإبراهيم خليل أحمد، المقدمات، ص: ٢٢.





وقد تعددت الروايات التاريخية – بما لا يدع مجالا للشك – التي تؤكد إرهاصات مجيء الرسول الجديد، وتذكر صفاته، من أجل ذلك راح اليهود يعلنون بين الفينة والأخرى عن قرب ظهور النبي الأخير، ويتباهون بذلك، ويهددون غيرهم بالانتماء إليه، ويتوعدونهم من أجل مزيد من السيطرة والنفوذ والإذلال واحتكار الأموال للعرب المحيطين بهم، لكن لم يكن يدور في خلد اليهود، وفي قرارة أنفسهم أن النبي الجديد قد ينتمي إلى سلالة أخرى غير السلالة اليهودية المعروفة.

وفي انتظار اللحظة الموعودة، وخلال الأجل المحدد في التوراة والإنجيل، لم يظهر في اليهود النبي الموعود وولد محمد صلى الله عليه وسلم في مكة، يحمل علامات نبوته المادية والمعنوية، تحكي الروايات: "أنه عندما ولد محمد صلى الله عليه وسلم بمكة، كان بها يهودي يدعى يوسف، فتوجه مع بعض وجوه قريش إلى آمنة فقالوا لها: "أخرجي لنا ابنك، فأخرجته، وكشفوا عن ظهره، فرأى الشامة [علامة النبوة]. فخر مغشيا عليه، فلما أفاق، قالوا: ويلك ما بك؟ قال: "ذهبت النبوة من بين إسرائيل"[٣٧]. وبذلك أصبح الطفل محمد صلى الله عليه وسلم في خطر دائم من اليهود، وهذا ما يفسر به أن بحيرا الراهب نصح أبا طالب أن يبعد محمدا عن اليهود فقال له: "والله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبلغنه شرا"[٣٨]. ثم أردف قائلا: "فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم"[٣٩].

وبعث محمد صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة من ميلاده، وخاض جهادا مريرا في الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة إلى الناس، متحديا مشركي قريش، الذين لم يعدموا وسيلة ولا رأيا في

٣٧ – "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ١٠٤/١، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٤٢٦/٢.

٣٨ – "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ٨/١.

٣٩ – "السيرة النبوية" لابن هشام: ٣٦/١.





إخماد جذوة رسالته ووأد حركته. "ورغم قلة الروايات وانعدامها أحيانا فإننا نستطيع أن نجزم بأن اليهود وقفوا طيلة الصراع المكي الذي دام ثلاثة عشر عاما، وراء قريش يتبادلون معها الوفود ويتصلون بها سرا، من أجل أن يشددوا قبضتهم على النبي العربي، وان يشلوا حركته قبل أن يشتد ساعدها، وتغدو قادرة على اكتساح كل من يقف في طريقها ليصدها عن هدفها المحتوم، وثنيا كان أم يهوديا"[٤٠].

فشلت محاولات الوثنية، وحليفتها اليهودية في وأد الدعوة الإسلامية في مكة، واستطاع عليه السلام ومن معه من السابقين الأولين الصمود في وجه مشركي مكة، وتوج هذا الصمود بهجرة رائعة إلى المدينة المنورة، والتي أنشأ بها عليه السلام دولته الإسلامية المنشودة. لم يكن اليهود في المدينة قادرين – أول الأمر – على إعلان عداوتهم المكشوفة للدولة الناشئة، ولصاحبها عليه السلام، ولأتباعها من عرب المدينة الذين يزدادون كثرة يوما بعد يوم، كما ولم يكن في مصلحتهم أن يقودوا بأنفسهم زعامة مقاومة الإسلام، وقريش لاتزال على قوتها وقدرتها في حرب المسلمين، لذلك ظل اليهود يشاهدون أطوار الصراع الإسلام الوثني، ويتأملون أحداثه، ويخططون على ضوء نتائجه المتوقعة، وهذا ما يفسر به موافقة معظم قبائل اليهود على "الدستور" الذي طرحه الرسول عليه السلام لتنظيم الأمور السياسية والاجتماعية والدينية في يثرب، ودخلوا أطرافا فيه برغبة مشوبة بالحذر الشديد.

ويمكن أن نميز في علاقة المسلمين باليهود بثلاثة مراحل أساسية وهي:

– المرحلة الأولى: مرحلة الهدنة المشوبة بالحذر.

---

٤٠ – "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٢٦٨.





- المرحلة الثانية: مرحلة الحرب المعنوية والنفسية التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين.

- المرحلة الثالثة: الصراع المسلح والقضاء على الوجود اليهودي في المدينة.

*** المبحث الأول: مرحلة الهدنة المشوبة بالحذر.**

ساد العلاقة بين المسلمين واليهود نوع من السلم المؤقت والهدنة المحدودة، وكان ذلك في أعقاب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبعد كتابة "الوثيقة" التي نظمت العلاقة بينهم، فقد اتصل الرسول عليه السلام باليهود، ودعاهم إلى الإسلام استجابة لأمر الله في وجوب تبليغ دعوته إلى الناس كافة، {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يومن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون} [الأعراف: ١٥٨].

لم يستجب لدعوة الإسلام إلا نفر قليل من اليهود، يتقدمهم عبد الله بن سلام[٤١].

فبالرغم من أنهم كانوا أهل دين سماوي له امتداد تاريخي، ويعرفون معنى النبوة وخصائصها وصفاتها، ويدركون الحقائق الاعتقادية المشتركة بين أهل الديانات، ويستطيعون - بكل يسر وسهولة - أن يتأكدوا من صدق محمد صلى الله عليه وسلم أو كذبه لكنهم أصموا آذانهم دون دعوته، ومع ذلك سارت العلاقة بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود سيرا حسنا في بداية أمرها. فكان محمد صلى الله عليه وسلم يتطلع أن يتفهم اليهود دوافع حركته الدينية وأهدافها، باعتبارهم أهل الكتاب، لاسيما أنهم يرون بأم أعينهم دلائل صدقه ويقرؤونها في كتبهم.

---

٤١ - انظر تفاصيل قصة إسلام عبد الله بن سلام في:"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٠٣/٢ وما بعدها.



رأى اليهود هذا التعاطف الإسلامي إزاءهم من محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه، لكنهم لم يفهموا أسبابه، ودوافعه، فاعتقدوا خاطئين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يعترف بأرجحية عقيدتهم التي يؤمنون بها، أو أنه عليه السلام سوف يتركهم وشأنهم، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك وظنوا – متوهمين – أنهم ربما يتمكنون يوما من استمالة محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى دينهم!!

إلا أن هذه الظنون سرعان ما تلاشت، فأدركوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم بكل وضوح، عندما توالت دعواته على ضرورة دخولهم في الدين الجديد، إن أرادوا الحفاظ على جوهر يهوديتهم التي جاء بها موسى عليه السلام. ثم توالت آيات القرآن الكريم تنزل سخطها وغضبها على ما يمارسه اليهود بحق دينهم وكتبهم من تحريف وتزييف من أجل حماية مصالحهم، أضف إلى ذلك سرعة انتشار الإسلام في المدينة وأطرافها مما يعني مستقبلا: عزل اليهود والحد من نشاطهم التجاري والاقتصادي على السواء.

وبتفحص المعطيات السابقة، أصبح يتضح لليهود خطر ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه يهدد بذلك وجودهم ويقضي على مصالحهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبناءا على ذلك سرعان ما أظهر اليهود عدواتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ووقفوا إلى جانب الوثنية، وامتدحوا أصنامها ونأوا عن التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.



* المبحث الثاني: مرحلة الحرب المعنوية والنفسية التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين.

ظهرت بوادر مرحلة جديدة اتسمت بشيء من التصعيد من قبل اليهود إزاء الإسلام ولرسوله، فبعد فترة السكون والترقب الأولى أبدى اليهود حقيقة سرائرهم نحو الإسلام والمسلمين فشنوا حربا نفسية ومعنوية عليهما، وأجمل أبرز معالم هذه الحرب فيما يلي:

١-إلقاء الأسئلة المحرجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد كان أحبار اليهود يوجهون أسئلتهم التعجيزية إلى محمد صلى الله عليه وسلم[٤٢]، ويظنون أنهم يصلون إلى حد إظهار عجزه عن الإجابة، يقصدون من وراء ذلك، إحراجه وتكذيبه أمام الناس، ولكن الله تعالى كان يبكتهم بما يوحي إلى رسوله من الإجابة عن كل سؤال يسألونه، ومن ذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله فيسمعوا كلامه تعالى، فأنزل الله في ذلك:{وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون}[البقرة: ١١٧].

٢-استخدام الجدل: انتقلت المناقشة الدينية بين الرسول عليه السلام واليهود إلى مجادلة كلامية، ومن المعروف أن اليهود أهل جدل ومراء على مر عصور التاريخ، خاصة مع أنبيائهم ورسلهم، ومواقفهم مع موسى عليه السلام مشهورة ومعروفة[٤٣]. لذلك بدأ اليهود الجدل مع محمد صلى الله عليه وسلم لإضعاف موقفه، والتشكيك في دعوته ومن أمثلة ذلك: جدالهم في مسألة النسخ، واستنكارهم أن يبدل الله آية مكان آية أو حكما مكان حكم وقالوا: ألا ترون أن محمدا

---

[٤٢] – انظر جزءا من هذه الأسئلة في:"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٢٢/٢ و١٢٣.

[٤٣] – خاصة في أمر البقرة:"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير: ٩٣/١ وما بعدها.

يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا، وهذا ليس من شأن الأنبياء، وراحوا يرددون أن القرآن من كلام محمد صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله قرآنا يرد عليهم فريتهم:{ما ننسخ من آية أو نفسها نات بخير منها آو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير}[البقرة: ١٠٦].

٣- الخداع والتلبيس: استخدم اليهود أسلوب الخداع والتلبيس قصد التشكيك في الإسلام ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانوا يظهرون الإسلام لفترة من الزمن ثم يرجعون عنه بعد ذلك، لتشجيع المسلمين على الارتداد عن دينهم، وقد ذكر القرآن هذه الصفة فيهم فقال تعالى: {وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[آل عمران: ٧٢].

٤-الاستهزاء بالدين واحتقار شعائره: اتبع اليهود طريقة الاستهزاء بالإسلام والسخرية من شعائره، وعباداته، وقد فضح الله مسلكهم هذا في كتابه العزيز، ونهى المؤمنين عن موالاتهم فقال عز من قائل:{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزؤا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون}[المائدة: ٦٠].

٥-إيقاع الوقيعة بين المسلمين لهدم وحدتهم: كان اليهود يتربصون بالمسلمين للإيقاع بينهم، ونشر الفرقة في جماعتهم وإحداث فتنة اجتماعية تكون بمثابة شرارة فتيل حرب بين طوائف



المسلمين خاصة الأوس والخزرج ومن ذلك، "ما فعله شأس بن قيس وكان شيخا قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، عندما مر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ومالنا إذا اجتمع ملؤهم، بها من قرار، فأمر فتى شابا من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث[٤٤]. وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار"[٤٥].

قال ابن إسحاق: "ففعل ذلك، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب... فبلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم وقال: "يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوة الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم"[٤٦].

٦-تعاون اليهود مع المنافقين للكيد للإسلام والمسلمين: زادت علاقة المسلمين باليهود توترا بعد انضمام اليهود إلى المنافقين في حربهم النفسية ضد المسلمين، "حيث جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول، وبصدد الحديث عن المنافقين :{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} فقد

---

[٤٤] – يوم بعاث: يوم من أيام الجاهلية اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس.

[٤٥] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٣٢/٢.

[٤٦] – نفس المصدر: ١٣٣/٢.





أجمع جمهور المفسرين أن شياطينهم هم اليهود، ويدل على هذا أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق، أو شجعوهم عليه في مواقف الخداع"[47]. وقد ذكر ابن هشام أسماء اليهود الذين أسلموا نفاقا وتشجيعا لغيرهم على النفاق لهدم صرح الإسلام من الداخل[48].

* المبحث الثالث: الصراع المسلح والقضاء على الوجود اليهودي في المدينة ونواحيها.

وابتدأت هذه المرحلة من علاقة المسلمين باليهود، بنقض العهود، فأول ما فعله اليهود أنهم نقضوا عهودهم ومواثيقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمسلمون لم يحدثوا أنفسهم أبدا بذلك، ولا فكروا في طرد اليهود من أرض الجزيرة العربية، بل على العكس كانوا يأملون منهم أن يكونوا عونا لهم في حرب الوثنية باعتبارهم أهل كتاب. بيد أن اليهود كانوا أسوأ ظنا، فلم تمض أيام على انتصار المسلمين في بدر حتى راحت قبائلهم تنقض عهودها، وتخون مواثيقها، وكان بنو قينقاع أول من نقض العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بنو النضير ومن بعدهم بنو قريظة، وينبغي التذكير أن نقض العهود هو أحد سمات اليهود على مر التاريخ، وقد نبه القرآن الكريم على هذه الخصلة فيهم فقال تعالى: {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون} [الأنفال: ٥٨].

وكان أول صدام مبكر بين الإسلام واليهود، ذلك الذي حدث في أعقاب معركة بدر... بدأ اليهود الذين صدمتهم نتيجة المعركة، التي لم يكونوا يتوقعونها، يروجون الشائعات ضد

---

[47] - "سيرة الرسول" لدروزة: ١٢١/٢.

[48] - راجع أسماء هؤلاء اليهود المنافقين في سيرة ابن هشام: ١١٠/٢ و١١١.





المسلمين، ويشنون حربا نفسية ضد رسوله ودعاته ويمارسون التجسس على المسلمين لصالح المشركين، حيث نقلوا كافة المعلومات عن نوايا المسلمين وحركاتهم إلى قريش[٤٩].

وازداد الموقف توترا في أعقاب حادثة سوق بني قينقاع، حيث جلست امرأة مسلمة إلى صائغ يهودي تبيع بضاعتها، فتقدم إليها عدد من اليهود وطلبوا منها كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى التحرش بها، مما اضحك اليهود المتجمعين حولها، فصاحت المرأة، فما وسع رجل من المسلمين إلا أن وثب على الصائغ اليهودي فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه، واستصرخ أهل المسلم أتباعهم، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[٥٠].

وبذلك نقض بنو قينقاع بنود دستور المدينة، وخرقوها، "فحاصرهم عليه السلام على حضورهم الواقعة داخل المدينة في شوال من السنة الثانية للهجرة، وقد استمر الحصار خمس عشرة ليلة، وانتهى بنزول اليهود على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قضى بإجلائهم عن يثرب إلى أي مكان يشاؤون"[٥١]. دون أن ينزل بهم أية عقوبة أخرى، وبخروجهم إلى أذرعات من بلاد الشام، تخلص المسلمون من واحدة من القبائل الرئيسية الثلاث التي استوطنت المدينة منذ أمد بعيد.

وبعد هذا الجلاء، خمدت نار اليهود المتأججة – ولو لحين – وضعفت همتهم في الكيد للإسلام والمسلمين، لكنهم تنفسوا الصعداء بعد هزيمة المسلمين في أحد، فراحوا يظهرون ضغائنهم على الإسلام والمسلمين، ويطلقون الأقوال السيئة خاصة بعد فاجعتي: الرجيع وبئر معونة وتأليب

---

٤٩ – "الرسول القائد" لمحمود شيت خطاب، ص: ٩٢.

٥٠ – "البداية والنهاية" لابن كثير: ٣/٤و٤.

٥١ – "الكامل في التاريخ" لابن الأثير: ١٣٨/٢.



الأعراب الوثنيين ضد المسلمين، وبذلك عاود اليهود نشاطهم الاستفزازي ضد الإسلام وأتباعه، فقرر بنو النضير التآمر على حياة محمد صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة للهجرة. "حيث ذهب عليه السلام إلى حصونهم بصحبة عدد من كبار الصحابة، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، كان أحد أصحابه قد قتلهما خطأ في أعقاب نجاته من حادثة بئر معونة، فوجدها يهود بني النضير فرصة سانحة لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يستريح أسفل جدار بيت من بيوتهم، استشار بعضهم البعض بإلقاء صخرة على رأسه صلى الله عليه وسلم، فتطوع للقيام بذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فبينما هو يصعد لتنفيذ المؤامرة نزل الوحي الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بما يدبر له، ثم غادر عليه السلام المكان عائدا إلى المدينة"[٥٢].

وبعد ذلك أمهل الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود مغادرة المدينة خلال عشرة أيام، وأن من شوهد بعدها منهم، ضربت عنقه، ولما لم يستجيب بنو النضير لإنذاره عليه السلام، أصدر أمره بالتهيؤ للمسير إلى حصون بني النضير وقتالهم، وبعد حصار دام خمسة عشر يوما استسلم يهود بني النضير، ووافقوا على الجلاء إسوة بإخوانهم من بني قينقاع"[٥٣]. وهكذا تم إجلاء القبيلة الثانية من اليهود بسبب نقضها العهد، وخرقها الميثاق وخفرها الذمة وخيانتها الرسول صلى الله عليه وسلم.

لم يشأ زعماء بني النضير الذين استقروا في خيبر أن يظلوا ساكتين إزاء هزيمتهم، وامتداد الإسلام إلى كل مكان، وتدارسوا الأمر فيما بينهم، ففكروا في تكوين تحالف كبير ومهاجمة المدينة

---

٥٢ – السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٣٨٢/٢ وما بعدها.

٥٣ – : الرحيق المختوم" لصفي الرحمان المباركفوري، ص: ٣٤٨.



لاستئصال خضراء المسلمين، وسرعان ما شرع اليهود في تنفيذ ما اتفقوا عليه، وبدأوا في الاتصال بقريش وغطفان وبقية القبائل العربية، وإقناعها بفكرة التحالف ضد الإسلام ومحاربته، وقد شارك يهود بني قريظة – الموقعين على صحيفة المدينة – في هذا التحالف، وبذلك نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد بلوغ الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحصن بالمدينة، وصمد المسلمون لمحنة الأحزاب وتمكنوا من دحر أخطر هجوم في تاريخ الإسلام[٥٤]. وبعد تفكك عرى الأحزاب ورجوعها خائبة إلى ديارها سار الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين إلى يهود بني قريظة، وبعد حصار دام خمس وعشرين ليلة، دب الرعب في قلوب اليهود وتسرب الخوف إلى أنفسهم، فأعلنوا استسلامهم، وبعد شد وجذب حكم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حليفهم سعد بن معاذ زعيم الأوس، فحكم عليهم بقتل الرجال وسبي النساء وتقسيم الأموال[٥٥].

وبهزيمة بني قريظة، يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد تخلص من التكتل اليهودي بالمدينة المنورة.

ظلت منطقة خيبر – على مر الصراع الإسلامي اليهودي – ملاذا آمنا، وملجئا مريحا لليهود الذين أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن المدينة. "ولما كانت خيبر هي وكرة الدس

---

٥٤ – راجع تفاصيل غزوة الأحزاب [الخندق] في:"السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٣٩٢/٢ وما بعدها، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٢٩/٣ وما بعدها.

٥٥ – انظر تفاصيل غزوة بني قريظة: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٤٢٥/٢ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٤٣/٣.



والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولا"[٥٦].

وبسبب ذلك كله، راح الرسول صلى الله عليه وسلم ينتظر الفرصة المواتية لضرب هذا التجمع اليهودي الأخير، وعندما بلغ إلى مسمعه صلى الله عليه وسلم تجهز أهل خيبر لمهاجمته المدينة واستنفار باقي اليهود ضده، جهز عليه السلام جيشه، وسار به نحو حصون خيبر، وهو يعلم صلى الله عليه وسلم أن نتيجة المعركة ستغير موازين القوى من جديد، وربما ستحدث نكسة، تعيد لليهود قوتهم وسلطتهم. وبعد تنظيم الجيش الإسلامي، وبث روح البسالة في نفوس جنوده، شن المسلمون هجومهم، وراحت حصون اليهود تتداعى واحدا تلو الآخر، وبذلك انتصر المسلمون على اليهود انتصارا باهرا[٥٧].

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تم تصفية آخر تجمع يهودي، لعب دوره في مواجهة الإسلام وخصومته، ووضع العوائق في طريقه، وحبك المؤامرات ضده، وقضى قضاء تاما على القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية ليهود الحجاز، وغدت كلمة الإسلام وحدها هي العليا في معظم مساحات الجزيرة العربية، وكبتت كل الجيوب التي كانت تشكل نقاط ضعف في جسد هذه الدولة التي يحيط بها الأعداء من كل مكان[٥٨].

---

[٥٦] – "الرحيق المختوم" لصفي الرحمان المباركفوري، ص: ٤٣٠.

[٥٧] – انظر تفاصيل غزوة خيبر في:"السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٤٧٠/٢ وما بعدها و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٢١٣/٣.

[٥٨] – "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٢٩١.



ويذكر ابن سعد في طبقاته أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نشط في العام ٧ هـ في الكتابة إلى زعماء بقايا التجمعات اليهودية في أقصى الشمال لتجديد موقفها من الإسلام، فكتب إلى بني جنبة بمقنا القرية من أيلة وإلى بني غاديا وبني عريض وإلى أهل جرباء وأذرح[٥٩]... وبذلك تمكن عليه السلام من تحويل هذه التجمعات اليهودية إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية، يؤدون الجزية مقابل التمتع بحماية الدولة الإسلامية، وعدلها وسماحتها.

٥٩ – انظر جزءا من هذه الكتابات في :"طبقات" ابن سعد: ٢٨/١ وما بعدها.



* الفصل الثاني: علاقة المسلمين بالنصارى.

* المبحث الأول: نشأة هذه العلاقة.

إن علاقة المسلمين بالنصارى علاقة قديمة - كمثيلتها اليهودية - ترجع في بداياتها الأولى إلى الإرهاصات المتبقية في العهدين القديم والجديد، فقد تواتر الحديث عن رهبان النصارى وأحبار اليهود، "بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب من زمانه، أما الأحبار من يهود، والرهبان من نصارى فما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه"[٦٠].

إن النصارى كانوا على علم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى دراية بصفاته وعلامات نبوته، بل يعرفون حتى اسمه، فعن سهل مولى عتبة - وكان نصرانيا من أهل مويس، يتيما في حجر أهله وعمه - قال: "أخذت مصحفا لعمي، فقرأته حتى مرت بي ورقة فأنكرت كتابتها حيت مرت بي، ومسستها بيدي، فنظرت فإذا فصول الورقة ملصق بغراء، ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أنه لا قصير ولا طويل، أبيض، ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة ويلبس قميصا مرقوعا، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر، وهو يفعل ذلك، وهو من ذرية إسماعيل اسمه: أحمد، فلما انتهيت إلى هذا جاء عمي، فلما رأى الورقة ضربني، وقال: مالك وفتح هذه الورقة وقراءتها؟ فقلت: فيها نعت النبي أحمد، فقال: إنه لم يأت بعد"[٦١].

---

٦٠ - "تهذيب سيرة ابن هشام" لعبد السلام هارون، ص: ٤٨.

٦١ - "الطبقات" لابن سعد: ٨٢/١.

وقد تحدث راهب من عمورية إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه، الذي كان يبحث عن الحقيقة وهو يجوب أنحاء الأرض قائلا له: "إنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بحرتين بين كتفيه خاتم النبوة"[٦٢].

أضف إلى ذلك أن الأناجيل القديمة قد اعترفت صراحة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بل وذكرته باسمه وصفاته وأخلاقه، وقد جاء في إنجيل برنابا: "فلما كان الناس قد دعوني الله، وابن الله على أني كنت بريئا في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس في هذا العالم بموت يهوذا، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب، لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله، الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله"[٦٣].

وبالرغم من هذه الحقائق الدامغة، والبينات الواضحة، فإن الكثير من النصارى شكوا في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، بل تحول شكهم هذا إلى استنكار وسخرية ومعارضة وقتال، ولكن كانت تظهر بين الفينة والأخرى بوارق صدق بينهم، تنير الطريق لباقي الحيارى من النصارى.

* *المبحث الثاني: مميزات العلاقة بالنصارى في مكة والمدينة.*

ويمكن أن نميز في علاقة المسلمين بالنصارى بين مرحلتين أساسيتين، اختلفتا اختلافا كثيرا من حيث الخصائص وطرق التعامل وهما: المرحلة المكية والمرحلة المدنية.

---

٦٢ – انظر بتفصيل لقصة إسلام سلمان الفارسي:"السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١٣٤/١ وما بعدها.

٦٣ – "انجيل برنابا" باب: ٢٢٠، ولمزيد من النصوص التي تؤكد بشارة الأناجيل برسالة محمد ينظر: "محمد بين التوراة والإنجيل والقرآن" لأحمد إبراهيم خليل، ص: ٤٣ إلى ٤٨.



ففي العصر المكي كانت علاقة المسلمين بالنصارى علاقة متميزة، بالرغم من حداثة الإسلام في مكة، فكتب السيرة تحكي أنه كان بمكة عدد كبير من النصارى من مختلف الأصول، كما كانت لهم مقبرة فيها، "وهكذا يمكن أن يقال إن أهل الديانتين اليهود والنصارى في مكة، الذين واجهوا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم عيانا وسمعوه، قد رأوا فيه من الأعلام والصفات النبوية ما هو متطابق بما هو مكتوب عندهم في أسفار التوراة والإنجيل، فقابلوا دعوته بترحاب وفرح، وشهدوا بصدقها وصدق التنزيل، وآمنوا بهما مع ما كانوا عليه من الضلال"[٦٤].

ولتميز علاقة المسلمين بالنصارى في هذا العهد، "فقد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه.. فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله، وآمنوا به، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره"[٦٥].

ولم يجد المسلمون، حين اشتد عليهم الخناق بمكة، ملاذا آمنا سوى أرض الحبشة النصرانية، التي احتضن أهلها المسلمون وأكرموا وفادتهم، ورفض النجاشي تسليمهم إلى قريش حينما بعثت في طلبهم، بل أجرى مناظرة بين الفريقين، اتضح من خلالها صحة الإسلام وصدق رسوله عليه السلام وتطابق ما جاء به مع جوهر الديانة النصرانية، وكان ذلك دافعا له إلى اعتناق

---

٦٤ – "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن" لمحمد عزة دروزة: ٣٤١/١.

٦٥ – "السيرة النبوية" لابن هشام: ٢٦/٢ و٢٧.





الإسلام والتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مقابل ذلك نجد المسلمين – وهم قلة مستضعفة في مكة – يهزهم نبأ الهزيمة الساحقة التي مني بها الروم المسيحيون على أيدي الفرس الوثنين، ويصيبهم بحزن عميق إزاء الفرح الذي غمر قلوب مشركي قريش، لكن القرآن ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم ويبشره بنصر قريب للنصارى على أعداءهم من المجوس، فتحقق النبوءة القرآنية التي لا تخطئ، فغمرت الفرحة قلوب المسلمين المضطهدين في مكة.

أما العصر المدني فهو على خلاف العهد المكي: "غني بالروايات والأحداث التي تلقي ضوءا شاملا على العلاقات بين الطرفين، سيما أن الإسلام كان قد تمكن آنذاك من بناء دولته، التي تتجاوز في سياساتها، وعلاقاتها الحدود الإقليمية والقومية صوب العالم المحيط حيث تقبع الدولة البيزنطية وحلفاؤها العرب وهم جميعا محسوبون على المعسكر النصراني"[٦٦] .

وفي بداية العهد المدني ساد نوع من الهدوء الحذر علاقة المسلمين بالنصارى، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم منهمكا في تثبيت دعائم دولته الجديدة، وفي مجابهة وردع القوى الوثنية واليهودية، كما أن الامتداد الجغرافي للدولة الإسلامية لم يبلغ آنذاك الحد الذي يقلق نصارى الدولة البيزنطية، ويدفعهم إلى إثارة المشاكل ووضع العقبات في طريق دولة الإسلام، كما أنه "لم يكن في المدينة جالية [نصرانية] ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينهما وبين النبي والمسلمين صدام، وأن يصدر منها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود"[٦٧].

---

٦٦ – "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٢٣٥.

٦٧ – "سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن" لمحمد عزة دروزة: ٢/٢٥٣.



أضف إلى ذلك أن القرآن المدني كان ينزل متحدثا عن النصارى وعقائدهم ومواقفهم، وكانت آياته أكثر وأصرح منها في القرآن المكي، "ولم تحتو حملات عنيفة قاسية عليهم، بل وصفتهم بأوصاف محببة إطلاقا، مما يلهم أن الذين لقيهم النبي منهم في المدينة كانوا دمثي الأخلاق ليني الجانب، غير جانحين إلى عنف أو كيد"[68].

وذلك مما يلهم أن الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى في العهد المدني كانت أوسع منها في العهد المكي، "كما يلهم أن المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم واحتك بهم أكثر تنوعا، وأن الذين لقيهم في العهد المكي كانوا أكثر تجردا عن الهوى والرغبات المادية، وأكثر استعدادا بالتبعية للاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها"[69].

وأما مواقفهم من دعوة الرسول عليه السلام لهم، فقد اختلفت حسب فئاتهم، وبيئاتهم، ومراكزهم، فمنهم من استجاب وأقبل على الإسلام خير إقبال واعتبر الإسلام امتدادا لديانته النصرانية، ومنهم من تمسك بنصرانيته وصرف وجهه عن الإسلام، ومنهم المجادل الشاق الصاد بعنف وتهجم عن سبيل الله، وكل هذه المواقف طبيعية، لأن الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم من النصارى أو اتصل بهم، كانوا مختلفين: فيهم البدو والحضر والنساك والزهاد المتجردون عن أعراض الدنيا الراغبون في الله وحقائقه، وفيهم أصحاب المركز والجاه ممن يخضعون لمؤثرات الدنيا وأعراضها، كما كان فيهم العوام السذج الذين يتبعون أسيادهم.

---

[68] – نفس المصدر: ٢/٢٥٣.

[69] – نفس المصدر: ٢/٢١٢.



*** المبحث الثالث: الصراع المسلح ضد النصارى.**

لكن مع مرور الوقت، واتساع نفوذ دولة الإسلام شمالا، وقرع أنباء انتصارات الرسول صلى الله عليه وسلم على المشركين واليهود أسماع النصارى، سيغير وجه العلاقة بين المسلمين والنصارى، حيث بدأ المعسكر البيزنطي النصراني يستشعر الخطر المحدق لدولة الإسلام، وعلى إثر ذلك بدأت بعض قبائل النصرانية القاطنة في "دومة الجندل" في أقصى الشمال تتحرك، وتتأهب لمباغتة المسلمين في المدينة وبمجرد بلوغ الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحرك بسرعة صوب الشمال في ألف من المسلمين، فتفرقت القبائل هاربة أمامه عليه السلام، ولم يلق بأس أو كيدا من العدو[٧٠].

وهذا يمكن اعتبار غزوة "دومة الجندل" هذه أول حلقة في سلسلة الصراع الحربي بين عالمي الإسلام والنصرانية"[٧١].

وبعد غزوة "دومة الجندل" بعام ونيف، أرسل الرسول عليه السلام سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف في شعبان من السنة السادسة لقتال كلب النصرانية في نفس المنطقة، وعلى إثر هذا التحرك أسلم أمير القبيلة: الأصبغ بن عمرو الكلبي، واسلم معه كثير من قومه، بينما وافق الآخرون على دفع الجزية والبقاء على دينهم[٧٢].

وعلى إثر هذين الانتصارين، أدركت القوى النصرانية المختلفة حجم الدولة الإسلامية وقوتها وقدرتها على التحرك والمباغتة في جميع الاتجاهات، فاستكانت ومنعت تكرار محاولات

---

٧٠ – راجع تفاصيل غزوة: دومة الجندل في: "السيرة النبوية" لابن اسحاق ٣٩٢/٢ و"زاد المعاد" لابن القيم: ٢١٨/٢.

٧١ – "دراسة في السيرة النبوية" لعماد الدين خليل، ص: ٢٣٧.

٧٢ – انظر تفاصيل أكثر عن هذه السرية في :"الطبقات" لابن سعد: ٦٤/٢ و"زاد المعاد" لابن القيم: ٢٣٢/٢.





استفزاز المسلمين أو حتى التفكير في غزوهم وحربهم، وبقي هذا الوضع بين الفريقين ردحا من الزمن، تمكن فيه الرسول عليه السلام من إكمال انتصاراته على الوثنية، وقضى فيه على آخر تكتل يهودي في الشمال خاصة في خيبر.

وعلى إثر ذلك دخل الإسلام مرحلة جديدة اتسمت بالقوة وبسط النفوذ، بعد الإجهاز على الوثنية، واليهودية والحد من كيدهما، فكاتب عليه السلام ملوك عظماء الدول المجاورة، والحق أن العالم النصراني قد حظي بالقسط الأوفر من هذه الكتابات النبوية، "ربما لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أدرك أن الوشائج التي تربط الإسلام بهذه الجبهة، باعتبارها تنتمي إلى دين سماوي تنص مصادره الدينية على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ستقودهم إلى تفهم دعوته التي انطلق بها سفراءه إلى ملوك وحكام هذا والمعسكر فضلا عن قربه الجغرافي من شبه الجزيرة"[٧٣] .

وفي أواخر السنة السادسة حين رجع عليه السلام من الحديبية، كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، واختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة، وهكذا أرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل، وخاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر، وعمر بن أمية الضمري إلى النجاشي حاكم الحبشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق[٧٤].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يهدف من وراء تلك المكاتبات، إلى إثبات عالمية الإسلام، فدين الإسلام ليس خاما بالعرب وحدهم، ولكنه رسالة الله إلى الإنسان، كيفما كان

---

٧٣ – "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٢٣٨.

٧٤ – راجع رسائل الرسول إلى هؤلاء وغيرهم في:"زاد المعاد" لابن القيم: ٤٤٧/٢ و"مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة" لمحمد حميد الله، ص: ٩٩ وما بعدها.





وحيثما وجد، كما كانت رسائله عليه السلام تحرير الشعوب بضمان حريتها في اختيار دينها بعيدا عن الإكراه والتبعية، وجاءت هذه الرسائل النبوية بمثابة حملة دعائية عالمية للإسلام، وللتعريف به على نطاق واسع جدا، وقد تحقق ذلك فأصبح الإسلام حديث الناس في جميع الأمصار والأعصار. "ولقد كانت سفارات الرسول صلى الله عليه وسلم وكتبه عملا بديعا من أعمال الدبلوماسية، بل كانت أول عمل قام به الإسلام في هذا الميدان، بم يذهب عبثا كما رأينا، ولا ريب أن النبي عليه السلام لم يكن يتوقع أن يلبي لأولئك الملوك الأقوياء دعوته وهو ما يزال يكافح في بثها بين قومه وعشيرته"[٧٥].

وبحلول السنة الثامنة للهجرة، كان لزاما على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ موقفا حاسما إزاء القبائل العربية النصرانية الموالية للبيزنطيين، بعد موقفهم الغادر والمتمثل في قتل مبعوثه عليه السلام: الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة. "وكان قتل الرسل والسفراء من أشنع الجرائم، يساوي أو يزيد على إعلان الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل"[٧٦].

---

٧٥ – "مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام" لمحمد عبد الله عنان، ص: ٢٠٨.

٧٦ – "زاد المعاد" لابن القيم الجوزية: ٢/١٥٥.





وهذه المعركة أكبر بقاء مثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت في جمادى الأولى من سنة ثمانية للهجرة"[٧٧].

وقد اختلفت الروايات كثيرا فيما آل إليه أمر هذه المعركة، ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان، حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فلما أصبح اليوم الثاني، غير أوضاع الجيش وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقة وميمنته مسيرة، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم وقولوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وهكذا انسحب المسلمون دون متابعة أو مطاردة من طرف الرومان رغم كثرة عددهم حوالي مائتي ألف مقاتل[٧٨].

ولم يمض شهر واحد على غزوة مؤتة حتى بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن جمعا من قضاعة تحالفوا مع الرومان لمهاجمة قبائل بلى وعذرة وبلقين الموالية للمسلمين، وتعرف هذه السرية "بذات السلاسل" وقد نجح المسلمون فيها من كسر شوكة قضاعة والمتحالفين معها، فقتل منهم عدد كبيرا، بينما فر الآخرون وتفرقوا في البلاد[٧٩].

بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في أواخر السنة الثامنة للهجرة، وفي أعقاب فتحه مكة وانتصاره في حنين بلغته أنباء خطيرة عن تحركات واستعدادات الروم وحلفائهم

---

٧٧ – "الرحيق المختوم" لصفي الرحمن المباركفوري، ص: ٤٥٩.

٧٨ – انظر تفاصيل غزوة مؤتة في "مغازي الواقدي": ٧٦٤/٢ و"السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٥٠٤/٢.

٧٩ – انظر تفاصيل أكثر عن سرية "ذات السلاسل" في: "مغازي" الواقدي: ٧٧٠/٢ و"البداية والنهاية" لابن كثير: ٢٧٣/٤.



من العرب القيام بها ضد الدولة الإسلامية قبل أن يشتد ساعدها وتتفرد في قيادة الجزيرة العربية، وتشكل خطرا حاسما على الوجود البيزنطي في بلاد الشام، "ولما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب، وإلى أهل مكة يستنفرهم... ولكنه نظرا إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان وجلي للناس أمرهم، ليتأهبوا أهبة كاملة وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة جراءة تثيرهم على الجلاد، وتحثهم على القتال، ورغبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله"[٨٠].

وتحرك الجيش الإسلامي نحو بتبوك وقوامه ثلاثون ألف مقاتل في ظروف صعبة للغاية، ولما وصلوا، عسكر الرسول صلى الله عليه وسلم في تبوك، وهو مستعد للقاء العدو، ولكن الرومان لما سمعوا بزحف المسلمين أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في البلاد"[٨١].

وعلى إثر ذلك أخذ الرسول عليه السلام يتصل بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة، ويتلقى سفاراتهم ويعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون، ويقطع بذلك ولاءهم للدولة البيزنطية، ويحولهم إلى مواطنين وحلفاء للدولة الإسلامية الجديدة"[٨٢]. وكان ممن جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك يوحنة بن رؤية صاحب أيلة حيث صالح الرسول عليه السلام ووافق على دفع الجزية، كما جاءه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية. وبذلك أيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح

---

٨٠ – "الرحيق المختوم" لصفي الرحمن المباركفوري، ص: ٥١٢.

٨١ – "زاد المعاد" لابن القيم الجوزية: ٣٦٢/٢.

٨٢ – "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٢٥٣.





المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، وحقق الرسول عليه والسلام انتصارا ساحقا على الجبهة النصرانية لا يقل أهمية عن نصره على الوثنية واليهودية[٨٣].

٨٣ – راجع تفاصيل غزوة تبوك في: "مغازي" الواقدي: ٣/٩٩٠ والبداية والنهاية" لابن كثير: ٩/٤.





المحتويات

